المجلد ٨ الجزء ١٠

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : تشرين اول سنة ١٩٢٨ م الموافق ربيع الثاني وجمادى الاولى سنة ١٣٤٧ هـ

المعاصرون (١)

الشيخ طاهر الجزائري

أصله ونشأته

هو طاهر بن صالح بن احمد بن موهوب السمعوني الجزائري ، هاجر والده الشيخ صالح من الجزائر الى دمشق في سنة ١٢٦٣ هـ وكان من بيت علم وشرف معروف في بلاده ، ولما جاء دمشق تولى قضاء المالكية وولد له ولد في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٦٨ هـ دعاه شيخ والده الشيخ المهدي (الطاهر) . قال والده في حاشية المجموع الفقهي للعلامة الامير المالكي « طهره الله من رجس دنياه ودينه وبارك في عمره ورزقه العلم والعمل به » واستجيب دعاء والده فنشأ ابنه طاهر على حب الفضائل والتناغي بالعلم والعمل .

دخل الشيخ طاهر المدرسة الجقماقية الاستعدادية فتخرج باستاذه الشيخ عبدالرحمن البوشناقي ، وكان مربياً شديد الشكيمة ، وتعلم العربية والفارسية والتركية ومبادئ العلوم ، ثم اتصل بعالم عصره الشيخ عبدالغني الميداني الغنيمي الفقيه الاصولي النظار . وكان واسع المادة في العلوم الاسلامية بعيد النظر واسع العقل وهو الذي حال بارشاده في حادثة سنة ١٨٦٠ م بدمشق دون تعدي فتيان المسلمين على جيرانهم المسيحيين في محلته فأنقذ بجميل وعظه وحسن تأثيره بضعة الوف من القتل في تلك

(١) محاضرة للسيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي ووزير معارف دولة سورية ألقاها في غرفة المجمع بتاريخ ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٢٨ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المذاهب المشؤومة . وكان الشيخ الميداني على جانب عظيم من التقوى والورع الحقيقي يمثل صورة من صور السلف الصالح فطبع الشيخ طاهراً بطابعه وأنشأه على أصح المبادئ العلمية الدينية . وكانت دروسه دروساً صافية المشارب يرمي فيها الى الرجوع بالشريعة الى اصولها والأخذ من آدابها بلبابها ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين وانقاذ الدين من المبتدعين والوضاعين . واذ جمع الشيخ طاهر الى سلامة الفطرة وسلامة البيئة جودة النظر وبعد الهمة جاء منه بالدرس والبحث عالم مصلح وفيلسوف الهي أشبه الاوائل بهديه وتمثل بالأواخر في نظره ووفرة مادته .

ولم يغفل الاستاذ خلال سني الدراسة عن درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية ، اخذها عن علماء من الترك وغيرهم . فكان اذا رأى اعلم منه بفن اخذ عنه فنه وافاده فيما لا يحسنه من فنون العلم . ومن مثل لعينيه كيف كان محيطه منحطاً اوائل النصف الاخير من القرن الماضي ايام كان يتهم بالمروق كل من تعاطى علماً لا يعرفه المتفقهة يدرك ما عاناه الاستاذ لتلقف هذه العلوم المادية . ولم يبلغ الثلاثين من عمره حتى غدا يتقن العربية والفارسية والتركية و ينظم بالفارسية كالعربية . وكان نظمه بالعربية أرقى من شعر الفقهاء ودون شعر نبغاء الشعراء . وألف السجع لاول امره ثم تخلى عنه واصبح يكتب مترسلاً بلا كلفة ولا تعمل ، وتعلم الفرنسية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبائلية البربرية لغة بلاده الاصلية . ومما ساعده على فتح صدره الرحب لجماع المعارف البشرية غرامه منذ نشأته بجمع الكتب وهو لما يزل في المدرسة الابتدائية . فقد اخذ يبتاع الدشوت والرسائل المخطوطة من دريهمات كان يرضخ بها له والده لخرجه . وكانت الكتب والرسائل تباع في الكلاسة شمالي الجامع الأموي على مقربة من ضريح صلاح الدين يوسف ابن ايوب . وكلما أحرز الشيخ شيئاً من الاوراق والاسفار طالعه بامعان وخبأه وحرص عليه فاستنار عقله وكثرت معلوماته واجتمعت له بطول الزمن خزانة مهمة من الاسفار قدرتها بستة آلاف مجلد فيها كثير من النوادر المخطوطة .

تولى التعليم لاول امره في المدرسة الظاهرية الابتدائية ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٢٩٤ هـ دخل في عداد أعضائها وكان من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اكبر العوامل فيها ثم استحالت هذه الجمعية « ديوان معارف » ، فعين مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية التي أنشئت على عهد المصلح الكبير مدحت باشا والي سورية سنة ١٢٩٥ . وكان للشيخ الاثر العظيم في تأسيسها بمعاونة صديقه بهاء الدين بك امين سر الولاية وهو اديب تركي كان يحب نهضة العرب كما يحب العلم والادب . وفي هذه الحقبة ظهر نبوغ شيخنا وعبقريته في تأسيس المدارس واستخلاصها من غاصبيها وحمل الآباء على تعليم اولادهم ووضع البرامج وتأليف الكتب اللازمة للمدارس . كان يقوم بهذه الاعمال المهمة ولا يفتأ يزداد كل يوم علماً وتجربة وتفانياً في نهضة البلد وتحسين الملكات وصقل الأخلاق والعادات .

وأنشأ على ذاك العهد ايضاً بمعاونة بضعة من أصدقائه « دار الكتب الظاهرية » بدمشق وجمع فيها سنة ١٢٩٦ ما تفرق من المخطوطات العظيمة في عشر مدارس تحت قبة الملك الظاهر بيبرس البندقداري ولقي ممن استحلوا اكل الكتب والاوقاف مقاومة شديدة وهددوه بالقتل ان لم يرجع عن قصده فما زادوه الا مضاء وانكماشاً . ولا تزال هذه الدار أثراً من آثاره في الشام . وقد أنشأ مثلها في القدس باسم الشيخ راغب الخالدي وسماها (المكتبة الخالدية) وأضاف اليها بعد ذلك آل الخالدي خزائنهم الخاصة .

علمه وعمله

رأينا منهاج الدروس الواسع الذي أخذ الشيخ نفسه بدراسته منذ حداثته وانه ليندر في المتأخرين من علماء دور الانحطاط الفكري نبوغ رجل مثله وعى صدره من ضروب المعارف ما وعى وطبق مفاصل الشريعة مع علوم المدنية فقد كان متضلعاً من علوم الشريعة وتاريخ الملل والنحل منقطع القرين في تاريخ العرب والاسلام وتراجم رجاله ومناقشات علمائه ومناظراتهم وتآليفهم ومراميهم . ساعده على التبريز في هذا المضمار قوة حافظته التي لا تكاد تنسى ما يمر بها مهما طال العهد . وكان اماماً في علوم الأدب واللغة اذا سألته حل مسألة تظن الشيخ لا يعرف غير هذا العلم واذا استرشدته في الوقوف على مظان موضوع تريده أطلعك من ذلك في الحال على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما لا يتيسر لغيره الظفر به بعد الكشف عنه اياماً . وهكذا هو في علوم الشريعة ولا سيما التفسير والحديث والاصول . وكان يعرف السياسة وماينبغي لها وحالة الغرب واجتماعه والشرق وأممه وأمراضه معرفة لا تقل عن معارف عالم أخصائي من علماء الغرب لعهدنا . ولا يكاد جليسه يصدق اذا انكفأ الشيخ يتكلم في هذه الموضوعات خصوصاً اذا كان غريباً ان محدثه شيخ من شيوخ المسلمين يعيش في أمة لا تقيم وزناً لهذه المعارف .

اتسع صدر الشيخ لجماع علوم المدنية الحديثة الا الموسيقي والتمثيل فلم يكن له حظ فيهما وربما قاوم سراً المشتغلين بهما مخافة ان تكونا سلماً الى التبذل وخلع ثوب الحياء والوقار وكان لا يرى فيهما الا مدرجة اللهو والصبوة وهذا مما لم يدخله الشيخ في جريدة أعماله ولذلك لا يفتي بالتسامح مع القائمين عليهما مهما أوردوا له من الحجج على نفعها . وصعب ان يتخلى المرء عن جميع ما أورثه إياه اهله واساتذته ومحيطه . وصعب على من حلف ان يعيش عيش جد وتبتل ان يتساهل في الصغائر لئلا تؤدي الى الكبائر . اما الرسم والتصوير والنقش فكانت مما يتسامح فيه لكنه يغمزه عرضاً . وكثيراً مايقول ان أجيال الفرنجة في هذا العصر أفرطوا في الغرام بالتصوير والتعويل عليه في كل امر فأضعفوا بذلك قوة التفكير والتصوير .

وسياسة الشيخ في التعليم محصورة في تلقف المسلمين اصول دينهم والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الطيبة وأخلاقهم القديمة القويمة وان يفتحوا قلوبهم لعامة علوم الأوائل والأواخر من فلسفة وطبيعي واجتماعي على اختلاف ضروبها و يقاوم المتعصبين على هذه العلوم المنكرين غناءها في المجتمع مقاومة حكيم عاقل وذلك بتكثير سواد الدارسين لها وارشادهم الى طرقها العملية المنتجة لا الوقوف بها عند حد الأنظار . فعمّ المسلمين في الشام درس علوم نرى اليوم الأخذ بحظ منها من البديهيات اللهم الا عند بعض الجامدين من المشايخ ممن جهلوها ومن جهل شيئاً عاداه .

وكانت للشيخ طرق مبتكرة في معنى بث الافكار التي تخالف معتقد الجمهور يبثها في العقول بدون جعجعة ولا مظاهرة و يقرب منالها من المستعدين لاخذ النفس بها وذلك بتلقينهم أمهات مسائلها اثناء الحديث على صورة لا ينفرون منها ولا يخطر لهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انها بالبدع المنكر . مثال ذلك انه اولع في صباه بكتب شيخ الاسلام ابن تيمية وكانت جمهرة الفقهاء في عصره تكفر ابن تيمية تعصباً او تقليداً لمشايخهم فلم ير الشيخ لتحبيبهم بابن تيمية الا نشر كتبه بينهم من حيث لا يدرون . فكان يستنسخ رسائله وكتبه و يرسلها مع من يبيعها في سوق الوراقين باثمان معتدلة لتسقط في ايدي بعضهم فيطالعونها وبذلك وصل الى غرضه من نشر آراء شيخ الاسلام التي هي لباب الشريعة .

هذا وليس الشيخ في مذهبه على الحقيقة حنبلياً ولا مالكياً ولا حنفياً بل هو مسلم يأخذ من اصل الشريعة باجتهاده الخاص و يحسن ظنه بائمة المذاهب المعروفة و يتجهم لمن يجرأ على النيل من احدهم . يعمل بما صح له من الدليل في الكتاب والسنة ولطالما اعطى الحق لعلماء الشيعة او الاباضية او المعتزلة في مسائل تفردوا بها وضيق فيها اهل السنة . اما الفلسفة او الحكمة القديمة والفلسفة الحديثة فكان يعطف عليها وعلى المشتغلين بها و ينحي باللائمة على المتأخرين الذين أوصدوا بابها فأظلمت العقول وضعف مستواها .

كان الشيخ ينكر على الظالمين سيرتهم و يقبح الظلم وان نال عدوه و ينصف الناس من نفسه بعض الشيء وكان الحكام معه في بلية يعرفون انه ينزع الى القضاء على سلطتهم الغاشمة ولا يستطيعون ان يقلبوا له ظهر المجن و يظهروا العداء له . وكذلك كان المشايخ معه يبغضون أفكاره ولا يجرأون على مقاومته بسلاحه سلاح العلم والبرهان فكان كثيراً ما يقول ما لنا ولأناس ليس لهم من السلطان علينا غير سلاطة السنهم وكلمات ينفسون عنهم بها وهي لا تخرج الى أبعد من سقوف بيوتهم وحجرهم . وحدث لبعض أغمارهم انا استعانوا غير مرة بالسلطة الزمنية على توقيف تيار أفكاره وأفكار أنصاره فكان الشيخ بصدهم بما له من التأثير في اهل الحل والعقد ممن كانوا يتمثل لهم عقل الرجل وضعف المبغضين له وكان يحسن مخاطبتهم بلسانهم والقائمون عليه لا يحسنون محاورتهم حتى ولا بلغتهم الاصلية . وسلاحهم دسائس يحوكونها وتعصبات ينفثونها . ولم يزل جهال الناس كما قال ابن المقفع يحسدون علماءهم وجبناؤهم شجعانهم ولئامهم كرماءهم وفجارهم ابرارهم وشرارهم خيارهم . من اجل هذا كان الاستاذ يتفنن في بث أفكاره بين الخاصة والعامة على صور شتى و يتفانى في نشر العلم والتهذيب والأخذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من القديم والحديث . وكم من عامي اصبح بتعاليمه وتلقينه بالعمل مسائل بسيطة من العلم معدوداً من المتعلمين في جلسات قليلة جلسها معه وسمع مذاكراته ومن هذه الطبقة أُناس مافتئ على تنشيطهم حتى الفوا وطبعوا ولم يكونوا قبله في العير ولا في النفير . وكم من جريدة او مجلة او كتاب او رسالة نشرت في مصر والشام بارشاده وكان له أُسلوب جرى عليه خصوصاً في تفتيش المدارس وهو ان يعلم المعلم ولا يشعره بانه يعلمه بل يوهمه انه يذاكره في مسائل التربية والتعليم او انه يحاول ان يتعلم هو منه .

وكم من اديب او عالم أرشده الى السبيل السوي في أدبه وعلمه وعلَّمه المظان وأساليب المراجعة . وكثير عدد من اشتغلوا بالآداب او تعلموا التعليم الثانوي اوالعالي في القطر الشامي ان لم يكونوا استفادوا منه مباشرةً فبالواسطة . وتلاميذه ومريدوه يعدون بالعشرات من المسلمين واكثرهم اليوم يشغلون مقامات سامية في دور العلم والحكم وفي التجارة والزراعة . ولم يحد المترجَم له عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ نعومة أظفاره ودعا الناس الى انتهاجها حتى آخر ايامه . وخطته الاخلاص والعمل على النهوض بالامة من طريق العلم وبث الملكات الصحيحة في اهل الاسلام . وثورته ثورة فكرية لا مادية و يقول ان هذا الطريق يطول امرها ولكن يؤمن فيها العثار والسلامة محققة ثابتة . بحق ما قيل في الشيخ انه معلمة (انسيكلوبيديا) سيارة وكيف لا يكون كذلك من آتاه خالقه حافظة قوية وذهناً وقاداً وعقلاً يستعمله على الدوام . فقد قرأ جميع ما طالت يده اليه من الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب . اما المخطوطات التي طالعها ولخصها في كنانيشه وجزازاته فتعد بالالوف . وقل ان يدانيه احد في علم الكتب ووصفها ومؤلفيها وحوادثها واماكن وجودها . ولطالما رحل من بلد الى بلد بعيد ليطلع على مخطوط حفظ في بعض الخزائن الخاصة . و بالنظر لاحاطته بالمظان وتدوينه في الحال كل ما يقع استحسن انه عليه من الفوائد ، كان يسهل عليه التأليف فيما ترتاح اليه نفسه من الموضوعات . وقد يؤلف الكتاب في بضعة اسابيع على شرط ان يوفق انه سيطبع .

فهو واسع الرواية واسع الدراية او كما قال صديقه العلامة احمد زكي باشا في برقية أبرقها الى الشام بالتعزية به « كنت ارى فيه الاثر الباقي والمثال الحي والصورة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الاسلامية وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص واستثارة خباياها وابراز مفاخرها هذا الى التفاني في توسيع نطاقها بقبول ما تجدد عند الامم التي تلقت تراث العرب باليمين والدعوة الى الاقبال عليه مضموماً الى آثار الابناء ومآثر الاجداد . وهكذا قضى الشيخ عمراً اولاً وثانياً وثالثاً في خدمة العلم والدعوة اليه بالقلم واللسان وبالقدوة الحسنة حتى تم له شيء كثير مما أراد بين الأنداد والتلاميذ والمحبين والمريدين فهم مناط الأمل وفيهم خير خلف لذلك يغتبط قاسيون بضم رفاته والحنو عليها » .

اخلاقه وعاداته

قلنا ان سيرة الشيخ طاهر كانت نمطاً واحداً طول حياته هكذا كان متعلماً ومعلماً وعالماً يحب العمل ويدعو اليه قبل النظر جد في حركته لا يبالي بالعوائق امامه مهما عظمت وكلما حاول اعداؤه ان يقفوا دون انبعاث دعوته يزداد قوة وعرامة شأن كل الدعوات كلما حاربتها زدتها انتشاراً ونبهت الناس اليها . ألغت الحكومة وظيفة التفتيش بالمدارس علها تخفف من شدته في بث أفكاره بين الاساتيذ والتلاميذ فزاد نشاط الشيخ . وكان مدرساً في المدرسة الأعدادية بدمشق وهو من جملة مؤسسيها فاستقال ثم عرضت عليه وظائف كبرى في غير السلك العلمي فأبى لانه كان يعرف انه لا بد له من مشايعة الظلمة والجهال على اعمالهم . وجعل جل اعتماده في عيشه آخر ايامه على الكتب التي اقتناها طول حياته باثمان بخسة واخذ يبيع منها بالتدريج ولا سيما اذا تأكد انها تحفظ في معاهد عامة كدار الكتب المصرية والخزائنين التيمورية والزكية في القاهرة فان معظم نفائس خزائنه نقلت اليها وتمزز الشيخ أثمانها نحو اربع عشرة سنة . وكان اشتراها في صباه باثمان بخسة فارتفعت اسعارها عشرة اضعاف او اكثر .

كان الشيخ على ضيق ذات يده أحياناً يتصدق على الفقراء في السر وربما كرّت يده عن لباسه وطعامه وأطعم جائعاً وعال معوزاً . يصلي الصلوات لاوقاتها ويقيم شعائر الاسلام حتى في غير بلاده . فقد زار مرة احد معارض باريز فكان اذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ادركته الصلاة صلى في الحديقة العامة لا يبالي بانتقاد الناس هناك ولا استغرابهم حركاته وسكناته . وحج مرة وطبق مناسك الحج على مايفعل العلماء العاملون . وكان مفطوراً على الرحمة يأرق لجاره او صاحبه اذا علم انه أصيب ببائقة في ماله او اهله او جاهه خصوصاً اذا كان الرجل ممن ترضيه سيرته في الجملة .

كان الشيخ يستنكف ان يأخذ شيئاً من احد بلا مقابل مهما كان الواهب . فقد عرض عليه صديقه الاستاذ احمد زكي باشا ان يوقع على طلب وهو يتعهد له براتب جيد من الاوقاف المصرية على عهد الخديوي عباس الثاني فتنصل واعتذر ولما اشتد صديقه في تقاضيه ذلك انتهره حتى لقد قال الاستاذ زكي باشا لو كنت اعتقد ان رجلاً يعيش من تحت السجادة لاعتقدت ذلك في الشيخ طاهر لانه يقيم في بلد كمصر يشكو فيه الاغنياء من الغلاء ولا يحب ان يأخذ من احد شيئاً يستعين به .

وكأنه يشير بحركته الى ما قاله القاضي علي بن عبد العزيز في عزة نفس العالم :

يقولون لي فيك انقباض وانما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل احجما
ارى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن اكرمته عزة النفس اكرما
ولم افض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل من لاقيت ارضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
انهنهها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم اولما ؟
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي ... لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرساً واجنيه ذلة ... اذاً فاتباع الجهل قد كان احزما
ولو ان اهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن اهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالاطماع حتى تجهما

لا اكون الى المبالغة اذا قلت ان عزة النفس وهو الخلق الذي ندر في علماء المسلمين لعهدنا كان مما تفرد به ففيه اباء الملوك وزهد الزهاد والعباد . لم يظاهر ظالماً لغنم يصيبه ولا صحب غنياً للانتفاع بغناه . وكان يؤثر الخمول وعدم الظهور ولا تهمه الشهرة استفاضت ام لم تستفض لانه يهزأ في باطنه بمظاهر الابهة والرفعة و يزهد في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اعتبارات كثيرة ينفانى الناس في تحصيلها يزهد حتى في نسبته الى الشرف ولم يذكر ذلك الا مرة واحدة ذكّره فيه احد صلحاء الجزائر بين امامي وسألته بعد ذلك عن نسبة بيتهم الى الشرف فقال « هكذا يقولون » ولا عجب فشرف العلم اشرف نسبة .

هاجر الشيخ من دمشق لما كثر ارهاق العلماء في العصر الحميدي فنزل القاهرة من سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧) الى سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠) وظل فيها طول هذه المدة على تقشفه والحرص على عاداته . ولما نشر القانون الاساسي في المملكة العثمانية (١٩٠٨) رأى الشيخ بنظره الثاقب ان عهد الحرية الحقيقية بعيد وكان لا يغتر بقوانين الترك ولا بثرثرة السياسيين فانزوى في مصر حتى استحكم منه مرض (الربو) وقفل راجعاً الى مسقط رأسه قبيل وفاته باشهر قليلة فعين مديراً لدار الكتب التي كان أنشأها في صباه وعضواً في المجمع العلمي العربي وناداه ربه الى جواره يوم ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٣٨ (٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٠) فدفن حسب وصيته في سفح قاسيون جبل دمشق . وقبيل وفاته برّح به الالم فاقترح على الطبيب ان يعطيه دواء يميته حالاً قائلاً ان في الشرع ما يبيح ذلك وهذا من اغرب ماسمع من عاقل . اما الطبيب فركن الى الفرار وحلف ان لا يعود لتمريض الشيخ .

كان الشيخ فيلسوفاً بكل ما في الفلسفة من معنى شريف لا تلتوي أخلاقه ولا ينزل بحال عن عاداته متشدداً في دينه زاهداً في دنياه لم تبهره زخارف الحياة ولم يتزوج حتى لا يشغل ذهنه بزوج واولاد وليكون ابداً مطلق العنان يسيح في الارض متى أراد او يقبع في كسر داره وسط كتبه ودفاتره . ولئن خلا من همّ نفسه فما خلا ساعة من الاهتمام بامر المسلمين وتحبيب العلم والعمل اليهم .

وعقد له صلات مستديمة مع علماء عصره على اختلاف أديانهم وأجناسهم . صحب صديقه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده كما صحب صديقه العالم المجري (غولدصهير) اليهودي . وكثيراً ما كانت صلاته بعلماء المشرقيات باعثة على تخفيف حملاتهم على الاسلام ولو قليلا . وهذا جل ما كان يهتم له ثم يهمه من امر المستعربين من المستشرقين توفرهم على خدمة آدابنا بنشرهم كتبنا النفيسة وكان يعاونهم فيما هم بسبيله اذا استطلعوه طلع رأيه ومتى استفتوه أفتاهم بما يتعذر وقوفهم عليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن عادة الشيخ ان يصحب الفرق المختلفة مهما كان لون طريقتهم ونحلتهم حتى الملاحدة وارباب الطرق . رأي ذات مرة جماعة يتألفون على طريقة لهم يحبونها واذكار مأثورة يقيمونها وشهد في بعض أفرادهم استعداداً للعلم فما زال بشيخهم وكان من أصحابه وتلاميذه حتى حمل الجماعة على ان يشغلوا الوقت في مطالعة كتاب من كتب القوم في التصوف وكان هذا الكتاب في الادب العالي والأخلاق الفاضلة . ورأيت الشيخ يحتمل كثيراً من تجهم بعض اولئك المتألفين فيدخل في مجلسهم متظاهراً بانه طالب استفادة حريص على درس أستاذهم وهو يحمل اليهم النسخ المخطوطة من الكتاب لمعارضتها بالمطبوع يحاول ان يعلم بعضهم صورة المراجعة في كتب اللغة حتى تسلم العبارة من الخطإ و يخدم الكتاب الخدمة اللائقة وبذلك تيسر له ان ينقل بعض ارباب الاستعداد منهم من كتب التصوف الى كتب العلم والأدب وسمعت بعضهم يتبرمون بقراءة تفسير ابن جرير الطبري وتبسطه في شرح الكتاب العزيز فجاء من هذه الزمرة أدباء نافعون بعد ان كانت نفوسهم مشبعة بالكشف والخيالات والمنامات . وأدخل النور على كثير من أذكياء العلماء من أصحابه وكان منهم الذين ذرفوا على الستين فما استطاعوا ان يؤثروا الاثر المطلوب في مريديهم ومنهم من ساعدهم الطالع ان كانوا في سن الشباب فعالجوا التأليف والوعظ والتعليم فانتفع بهم الناس كل النفع ومنهم من لم يتمرنوا على الكتابة والالقاء فبقيت لهم افكارهم في دائرة القوة لم يتعد اثرها المحتفين بهم من الأصحاب والمريدين .

ولقد كانت له صداقة اكيدة بالعالم المطران يوسف داود السرياني يتسامران ويتحدثان ويتهامسان ويتنسافسان . وما أدري ان كان المطران أثر في الشيخ او أثر الشيخ في المطران . سمعت الشيخ يثني الثناء المستطاب على صديقه المطران وقد طالت به صحبته وعشرته . وهكذا كان له اتصال بالارمن واليهود واليسوعيين الكاثوليك والاميركان البروتستانت . وكان يغضي عن كثير من النقد على رجال الدين من غير المسلمين ويقول هم أقرب الناس الينا يعتقدون بالله واليوم الآخر وخلود النفس . وكانت جميع الطوائف تستلطفه وتحب عشرته على ما بينها وبينه من التخالف الظاهر في الزي والعادة والخلق والمذهب و يطلعونه من سرائرهم على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما لا يبوحون به لأقرب الناس اليهم . وسمعته غير مرة يقول « الحمد لله لقد سالمنا كل الفرق » .

صحب بعض الزنادقة وما زال يصبر على ما ينبوعنه سمعه من تصريحهم وتعريضهم وما فتئ يلقنهم أفكاره بالتؤدة مدة حتى عاد بهم الى حظيرة الدين وهم لم يشعروا فيما أحسب بما دخل على عقولهم من التبدل وصحب كثيراً من غلاة الشيعة والطوائف الباطنية فما برح يلطف لهم حتى أضعف من غلوائهم وأيدلهم بعد الجفوة أنساً وغيّر من انقباضهم وانقباض الناس عنهم ليعيشوا في هناء وسط المجتمع الانساني الاكبر .

وكان يتفنن في بث الأفكار الصحيحة واخراج قومه من الأمية المميتة و يحمل خاصته ومن يصل صوته اليهم على تعليم اولادهم الممكن من ضروب العلم الذي يتناسب مع حالتهم الاجتماعية . وقال لي مراراً اذا أردت إدخال الاصلاح الى بيوت الاعيان وفيهم الجاه والمال فاجهد لان يتعلم ولو فرد واحد من كل أسرة تقلب به كيانها . وكثيراً ما قال لنخرجن من بيوت الاغنياء اولاداً يحاربونهم بسلاح التربية الصحيحة وقد وفق الى ذلك بعض الشيء . وكان يقول لو طلب مني اليهود ان أعلمهم ماتأخرت ساعة عن إجابة طلبهم لان في تعليمهم تقريباً لهم منا مهما كانت المباينة والفوارق بيننا وبينهم .

ما رأيت الشيخ يبغض انساناً بغضه لشقيقين دمشقيين جعلا شعار العلم على رأسيهما وكان اذا ذكر احدهما او كلاهما في مجلسه يقول « دعونا » وتنقبض نفسه انقباضاً دونه كل انقباض ولو علمت ان بغضه لهما — وكانا بغيضين للناس — كان ناشئاً من كونهما اعطيا عهداً على انفسهما ان يصدا الناس عن طلب العلم لبطل عجبك . واكد الاستاذ ان الاخوين قد وفقا بدعايتهما الضارة الى ان قطعا عن الدرس نحو اربعين طالباً كان يرجى ان يكون منهم متعلمون بل علماء عاملون وكان من عادة بعض ادعياء العلم من الشيوخ ان يرغبوا الناس عن الدرس ليخلو لهم الجو ويستمتعوا وحدهم بالمناصب الدينية والاوقاف والمدارس والجوامع لا ينازعهم احد في شؤونهم ما خلا أبناء بيوت محدودة معروفة ممن هم على شاكلتهم في غش الامة والاستئثار بمرافقها . فكان شأن هؤلاء في الاستئثار الممقوت شأن كهنة قدماء المصريين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يسمحون لغير فئة خاصة بالتعلم او شأن اصحاب الطبقات من الهنود او اللاو بين عند اليهود لا يدخل اهل طبقة في طبقة غيرها مهما تبدل من حالتها ٠

من اجل هذا كان من رأي الشيخ ان يتعلم كل طالب علم (العلم الاسلامي) صناعة او تجارة او نحو ذلك من أسباب المعاش مما يغنيه عن الناس وعن تكفف العظماء لتعزف نفوسهم عن التناول من الاوقاف والتمرغ في حمأة القضاء والافتاء و ينشأوا على استقلال النفس لان هذا العلم يطلب لذاته وفائدته في الدارين لا للتكسب به عند السلاطين والحكومات ٠ وفي سيرة بعض علمائنا الاقدمين ممن كانوا يحترفون ويتجرون عبرة لاهل هذا الشأن واي عبرة ٠

ولطالما تفرس الشيخ في انسان الشر واعرض عنه وحذر أصحابه من الدنو منه فيناله من نقد غير العارفين ما يناله و يقولون ان الشيخ صاحب أطوار وغرائب والشيخ ساكت يقول : « هم أحرار ونحن لا نكم أفواه الناس عن التحدث بما يروقهم » ولا تلبث الايام بعد حين ان تكشف نفس ذاك الشرير على صورة مستغربة وكثيراً ما كنت أسأله عن بعض الاشخاص من حيث علمهم اوأخلاقهم فيجيب (الامر مجهول) فافهم بالتعريض ان في معلوماتهم او سلوكهم نظراً فيظهرون بعد لأي بمظهر الجهل او الخيانة ٠ وقد خدعوا السذج من اصحاب الصدور السليمة ومن قلت تجاربهم في المجتمع اعواماً غير قليلة ٠ ومن فراساته الغريبة يوم حدث الاعتداء على ولي عهد النمسا في مدينة سراجيفو سنة ١٩١٤ ان حرباً اوربية طاحنة ستنشب لامحالة فأبعد في تصوره خطورة الموقف الى ما لا يتعداه غير اعاظم المفكرين العارفين بنتائج الحوادث ٠ كان يصدع بالحق ولا يماري اذا دخل مجلساً ورأى فيه بعض الظالمين او المخرفين غلب عليه الجلال فلا ينطق بكلمة ، واذا رأى من احد الحاضرين تمويهاً في امر وخروجاً عن الصدد جبهه واحتد فيخرج عن مألوف الناس في الملاينة والملاطفة وهذا سر من أسرار ازورار بعض الناس منه ٠ واتفق ان احد أترابه ارتقى في الدولة العثمانية حتى أصبح الحاكم المتحكم في العهد الحميدي فقاطعه الشيخ مقاطعة بلا سبب ظاهر فتوسط صاحبه احد أقاربه ليعود الشيخ الى مراسلته ووعد الشيخ ومناه فأغضى الشيخ عن إجابته ثم الح الوسيط بعد مدة ليعرف الداعي الى إعراض الشيخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عن صاحبه فقال : « اكتبوا له اننا لا نتعرف اليه ما دام لا يعرف أمته ومتى فكر في إسعادها وتخفيف البلاء عنها عدنا إخوانه وأخدانه » . وحدث ان صديقه الاستاذ احمد زكي باشا نال بواسطة المرحوم احمد حشمت باشا وزير معارف مصر اعتماداً بعشرة آلاف جنيه لطبع مجموعة من الكتب العربية القديمة النادرة تبلغ فيما أذكر سبعة وعشرين كتاباً ومنها ما يدخل في بضعة مجلدات فتباطأ زكي باشا في الطبع ومضت السنة فقيد المبلغ في نظارة المعارف على حساب السنة المقبلة ولم يخرج الباشا شيئاً وهكذا حتى ألغي الاعتماد باستقالة حشمت باشا فغضب الشيخ غضبة مضرية من عمل زكي باشا وصارحه بقوله : « لقد أسأت الى الامة العربية بابطائك في إخراج الكتب للناس واذا ادعيت انك كنت تقصد نشرها سالمة من الخطإ مشفوعة كلها باختلاف النسخ والتعاليق فالتأنق لا حد له ويكفي ان ينتفع الناس بالموجود » . وظل الشيخ أشهراً لا يكلم صديقه الزكي الا متكلفاً كأنه عبث به وحمل الضرر الى مصلحته مباشرةً . واي مصلحة أعلق بقلبه من نشر آثار السلف واذ كان الشيخ عصبي المزاج يحب اتمام كل عمل لساعته وكان يستشيط غضباً من رجل قال له ان لك عندي كتاباً ولكني انسيته في داري اوحانوتي اومدرستي وكثيراً ما كان يحمل من يشغله بكتاب جاءه على ان يفتح محله مهما كان بعيداً او مهما كان الحديث في ساعة متأخرة من الليل . ويقصد الشيخ في ذلك ان يعلم الناس العناية بمصالح غيرهم ايضاً . وكان يقول في مثل هذه الاحوال ولعل في الكتاب امراً مستعجلاً يستدعي ان يجاب عليه في الحال .

غريب عاداته

كان سمت الشيخ وهندامه سمت العوام وهندامهم وعمامته من الأغباني في جبة بسيطة وقفطان قطن وزنار مزدوج يخبأ فيه بعض الدراهم وألبسته من صنع الوطن الا النظارتين والطربوش و يختار من القمصان والسراويل ما خفّ ثمنه ليطرحه اذا اتسخ ولا يشغل ذهنه بغسله وكثيراً ما يلبس قميصين وسروالين وقفطانين وصدرتين وجبتين ليكون على اتم الاستعداد لما يطرأ على احد الزوجين فيطرحه حالاً و يستعيض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عنه باخيه دون انتظار شيء آخر . ويقل استعماله للمناديل المتعارفة المعمولة من القطن فيعمد الى اتخاذ مناديل من الورق الغليظ يضم بعضه الى بعض و يخيطه فيكون دفتراً يلقي به الشيخ بعد ان يتسخ كله . وكان يطهر جسمه ولا ينظف ثيابه كثيراً . أصيب بهذه الخلة خصوصاً بعد ان فقد والدته في صباه ولم يبق له من رحمه امرأة تتعهده ابداً بنظافة ثيابه والعناية بظواهره وانى له هو ان يسد مسد أمه في ذلك وفكره مشغول بمطالب عالية أخرى قد لا يتسع لمثل هذه الجزئيات في رأيه .

ورأيت في بعض تعليقاته في ترجمة عبد الله بن الخشاب وكأنه ينقله لها ترجم نفسه فقال بلسان الحال وهذا رجل مثلي كان الى الخمول قال : « كان وسخ الثياب ما تأهل ولا تسرّى له معرفة بالحديث والمنطق والفلسفة والهندسة بل بكل فن ، وكان يترك عمامته اشهراً ولا يغسلها ويلبسها كيف اتفق فاذا قيل له في ذلك يقول ما استوت العمة على رأس عاقل قط » . وشيخنا رحمه الله كان من هذا الطراز . والعبقرية على ما يظهر تكمل من صاحبها ناحية واحدة وتنقص منه من الناحية الاخرى بقدرها . أراد الشيخ احد أصحابه في القاهرة خلال الحرب العامة على ان يغير جبته لانها بليت بعض أطرافها فسكت الشيخ عن إجابته . فلما ألحّ عليه مرتين وثلاثاً أجابه « يا فلان تريدني على اقتناء جبة جديدة واهل الشام اليوم يموتون من الجوع » .

وأضافه احد اصدقائه في بيروت واخذ ذات يوم ثيابه بدون استئذانه ليغسلها وعوضه عنها ثياباً جديدة فخنق الشيخ ومازال بمضيفه حتى أعاد اليه ثيابه الوسخة وذلك لئلا يشغل فكره في ثيابه ريثما تغسل وتنشف ولئلا يلبس ثياباً غير ثيابه . وغضب مرة على احد اصحابه ومساكنيه في القاهرة لانه اقترض غيابه فنزع من غرفة الشيخ جميع الكتب والفراش المملوء بالبق وكنس الغرفة ونفض الغبار عن الكتب والأواني وغسلها ووضع سمّاً لقتل البق في السرير حتى لا يصل الى الشيخ فيقرصه وأعاد كل شيء الى مكانه فلما رأى الشيخ ذلك عرف ما دبر له ولم تطب نفسه بهذه التعزيلة وانحى على صاحبه باللوم والتقريع . ورأيته مراراً وقد نثأ مسمار اومسامير من حذائه فكان يخصف من ورق الشجر يجعله في الحذاء ليتقي ضغط المسمار على رجليه ولا تحدثه نفسه ان يذهب الى الحذّاء يصلح له حذاءه واذا قلت له في ذلك أجابك ان الوقت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يساعدني . وكان مداسه متسعاً في الشتاء يجرف من الارض طيناً كثيراً يعلق بجبته فيصبح وجهها شكلاً وقفاها شكلاً آخر . ولطالما تبرم بزيارته ايام المطر بعض ربات البيوت مخافة ان يعلق طين جبته في المقعد الذي يقعد عليه . وكان اذا اشتد الحر استثقل الجوربين فنزعهما من رجليه وعوضهما اوراقاً هشة ملونة جعلها حفافي نعله لتمتص العرق بزعمه . وانت لا تملك نفسك من الضحك اذا رأيت رجليه وتستغرب من عظيم كهذا يهزأ بعادات مجتمعه الى هذا الحد ولا يبالي النقد ولا الملام ولطالما قال انا شاذ ولا أحب ان يقتدي بي احد .

ومن عادة الشيخ ان يحمل في جيوبه وعبابه بعض الدفاتر والرسائل بل أقلاماً ودواةً ومقراضاً وسكيناً وابراً وخيوطاً وشيئاً مما يحمل من النواشف والخبز والجبن والزبدة والتين والزبيب وفي بعضها مادة دهنية دسمة يخشى ان تسيخ كالشواء ومادخله سمن او زيت من المآكل يضع ذلك في مقوى او ورق غليظ ويستعمله عندما يريد ويطعم منه اصحابه ان احبوا . اما الدخان والسكر والمرب فيحمل منه مؤونة ايام احياناً وقد يطبخ القهوة في داره كمية وافرة ويحمل منها ما يكفيه اسبوعاً حتى لا يضيع وقته بطبخها كلما اراد تناول فنجان منها وهكذا يشربها باردة بائتة اياماً لئلا يشتغل بها كل ساعة عن مطالعته . وقال لي مرة انه ابتاع ارطالاً من البرتقال وضعها في داره ومن الغد بدا له ان يسافر وتذكر وهو على اذرع قليلة من البيت انه يجب ان يستصحب في حقيبته شيئاً من البرتقال وتذكر ما اشتراه منه بالامس فآثر ان يبتاع برتقالاً من الطريق لئلا يضيع وقته بالرجوع الى الدار بعد ازماعه الخروج منها ولم يعد الشيخ الى داره الا بعد ستة اشهر وفرح ان رأى برتقالاته تضمر وتنشف .

وكان مغرماً بالتدخين منعه الطبيب منه واراده على إبطاله فتعذر عليه ذلك فقال الطبيب ان كان لا بد من التدخين فلف بنفسك لفائفك حتى يمضي جانب من الوقت في اللف وكان الشيخ لا يحسن صنع لفائفه فتجيء واحدة دقيقة واخرى غليظة وثالثة متوسطة وعندئذ يبدأ الشيخ بتجاربه ليضع اللفافة في البز (الفم) الذي يلائمها وكان في جيب الشيخ بضعة من هذه الابزاز بتخيرها من القصب او غيره من انواع الخشب وهكذا كان يتلهى عن الإكثار من التدخين ولو بضع دقائق واذا قلت له

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بابطال التدخين ينهرك و يعرض عن حديثك هـذا وهو صاحب ارادة قدت من حديد او صخر .

ومن عادة الشيخ خلال الاربعين السنة الاخيرة من حياته ان لا ينام الا اذا صلى الصبح يساهر بعض اصحابه هزيعاً من الليل ثم يغشى حجرته يطالع و يؤلف وكان لا يراعي اوقات بعض احبابه فيوقظهم احياناً بعد الهزيع الثاني من منامهم ليسمر عندهم اما من كان لهم مواعيد و يعرفون التوقيت لساعات الليل والنهار فكان يصونهم عن غشيان منازلهم موهناً ولا يطرق ابوابهم بعد الاوقات المعينة للسمر والسهر .

كان يحب السباحة والعوم وله مسبح خاص في بيروت وآخر في صيدا ومسابح في بعض أنهار دمشق وربما لبس سراويله مبللة بعد الخروج من سباحته و يهوى السير على الاقدام للتريض ولطالما قطع عشرات الأميال بين المدن والقرى والجبال والاودية سائراً على قدميه . وقد يراه في الطريق بعض اصحابه او من لا يعرفه و يدعونه الى الركوب في مركباتهم او على متون دوابهم فيأبى لانه لا يحب ان ينقض امراً ابرمه ونفسه تتوق الى السير ماشياً فاي معنى للركوب . ومن اغرب اطواره انه اذا استعدت نفسه للقيلولة قال وهو وسط اخوانه يتذاركون و يتدارسون . يقيل وهو قاعد و يضع على وجهه منديلاً وربما اتم اغفاءته عند انجاز الدرس والمذاكرة ولم يكن يحب ان يطول الدرس اكثر من نصف ساعة لانه يتبرم بالجد في هذه المجالس وهو يقضي الساعات في مطالعاته الخاصة .

كان الشيخ لا يعرف الهجر ولا يشتم شتماً ينبو عن حد الادب مع حدة فيه ظاهرة وألم من اكثر احوال المجتمع وكان اذا صفا ذهنه تفصح عبارته في محاضرته والا فيعتريها شيء من اللهجة المغربية ممزوجة بالعامية الدمشقية وله تعبيرات خاصة وأساليب في مصطلحاته ونبراته لطيفة تحلو من فمه . يمزج أحماضاً من الجد وما احصي عليه ان نطق يوماً بفحش او هراء او استعمل ما ينافي الأدب والمروءة وكان يميل الى بعض من فيهم البلاهة ممزوجة بالذكاء وتصدر عنهم غرائب الافكار والتصورات وربما قصدهم كل سنة من بلد الى بلد ليقطع بينهم اياماً يخرج فيها من الجد و يدخل معهم في حديث قد يروقه للتسلية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حدثني احد لداته قال كنا في دمر احدى قرى دمشق نقضي فيها يوماً للنزهة وكنا في نحو الثلاثين من العمر فاعتزل الشيخ طاهر في ناحية من الحديقة يطالع ويكتب في ظل شجرة وكنا حراصاً على ان يكون معنا طول النهار وكانت في البستان فتاة اسرائيلية جميلة الطلعة فاقترحنا عليها ان تذهب الى الشيخ المستظل بالشجرة وتأتينا به ونحن نكرمها بالمال فصدعت بالامر ولما رفع رأسه من كتابه أخرج لها في الحال قطعة من القمرالدين (معجون المشمش) وقال لها « ايه بارك الله أنا كلين قمرالدين يا قمر الدنيا » وصرف الفتاة بهذا التقريظ وهذا كل ما اثر عن الشيخ في باب التصابي.

وسأله احد الطلبة عن حكم التقبيل وما اليه فأجابه هذا موضوع لا أعرفه سل غيري. وتكلم احد اصحابه بكلام بعيد عن الحشمة في حضرته فأشاح بوجهه وتصامّ كانه ما سمع ولا دهش لهذا الغريب من الحديث على حين كان مغرماً بالغرائب ولكن لا من هذا البحر والقافية.

سأله احد الفقهاء ممن ألفوا كتباً دينية حشوها بما لا يقره الشرع الصحيح ولا العقل الصريح « كيف تجد كتبي يا شيخ طاهر » فأجابه في الحال متخلصاً أجمل تخلص « اشتغلوا ونحن نشتغل لنرى لمن تكون النتيجة » وكان يكره المتشدقين من المؤلفين والكاتبين خصوصاً في الدين والسياسة بل يكره كل من يقول بغير علم و يحاسب الذين يرمون الكلام على عواهنه حساباً غير يسير و يسميهم الحشوية كما يكره الجلجلوتيين والقبوريين والجامدين والمماحكين. وسمعته يقول ان فلاناً برده على الماديين وهو لا يحسن العلوم المادية فتح علينا ابواباً يصعب سدها وفلاناً بمقالاته السياسية المطولة يفتح بقلمه كل حين مشاكل صعبة الحل.

وكان ينهر من يوردون احاديث تفت في عضد السامعين وتلقي في قلوبهم الرعب والوهم لان من مذهبه تقوية القلوب وإزالة غشاء الاوهام من الأحلام وان يصمد المرء لمكافحة الحوادث ولا يحب الاستقراء والاستنتاج اذا كانا في غير محلهما حتى لا يؤدي التزيد والتفلسف الى تزييف الوقائع وإلباس الحقائق غير صورها ولذلك كان يستلطف من الانكليز السكسونيين ايجازهم في احاديثهم وكتبهم و يوحشه من اللاتينيين تبسطهم في أقوالهم ومكتوباتهم.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان يرفق بالضعفاء و يرفع من قدر الصعاليك و يحمل على العظماء ويترفع عن ملابستهم و كثيراً ما كان يحدث العامة برفق ونؤدة ويخاطبهم خطاب اخوانهم لهم . ولطالما قال ان من الحكمة ان لا تجعلوا بينكم وبين العامة حجاباً كثيفاً اذا أحببتم هدايتهم والانتفاع بهم في المجتمع وعليكم ان توهموهم انليس بينكم وبينهم من الدرجات الا قليل يوشكون هم اذا اشتغلوا قليلاً ان يساموكم او يفوقوكم فهو بهذا كالطبيب الحاذق يعطي المريض الجرعة التي تناسبه و يتدرج به في المقويات درجة درجة وهكذا كان مع كل طالب ومستفيد . تحقق لدى الشيخ ان ابن اخيه وكان من نوابغ الشبان ابتلي بأخرة بالشراب يتعاطاه فقطع مكاتبته مع شدة حبه له وظل لا يكلمه ولا يبحث عنه مدة اثنتي عشرة سنة وهو يكتم السبب في إعراضه عن نجل شقيقه حتى أشار مرة لبعض خاصته بما يرتكبه المغضوب عليه من اخذ المسكر وعدّ عليه في جملة هناته انه أتعب نفسه في المدرسة زيادة عن المطلوب فضعف بصره حتى ينال رتبة علية وكان عليه لو سمع نصائح عمه ان لا يرهق نفسه و يكتفي من المنافسة مع اقرانه بما توصله اليه الطبيعة بدون اعنات ولا انهاك بدن وهذا من قوة نفسه وصدق حدسه .

كان يكره الاستعمار كرهاً شديداً و يحب المدنية و يحث على تعلم لغات الغرب و يكره السياسة العثمانية و يقول ان استيلاء الترك على بلاد العرب أضر بها وأزال مدنيتها وغيّر أخلاقها ولم يكن ينكر على الاتراك أدبهم في عشرتهم ونظامهم في بيوتهم وحسن معاملتهم لكبرائهم . وكان يحب من اهل المدنيات الحديثة كل أمة ترفق بالمسلمين في الجملة و يحب من الناس من يصرف في خدمة المسائل العامة شيئاً من وقته وماله . وكان يقول وهو على فراش الموت عدوا رجالكم واغفروا لهم بعض زلاتهم وعضوا عليهم بالنواجذ لتستفيد البلاد منهم ولا تنفروهم لئلا يزهدوا في خدمتكم يقول هذا رجل أخلص كل الاخلاص في خدمة أمته وتفانى في حبها ومعالجة أدوائها الاجتماعية وكان جماع ما كافأته به في حياته عبوساً وانقباضاً وتنغيصاً وغصصاً ثم عصياناً على إصلاحه الناجع كالطبيب النطاسي يريد الخير بمريضه المعربد وكلما ناوله الدواء عضه وأدماه وشتمه وآذاه « أريد حياته و يريد قتلي » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان الشيخ كثيراً ما ينشد قول البها زهير :

يا أيها الباذل مجهوده في خدمة أف لها خدمة
الى متى في تعب ضائع بدون هذا تأكل اللقمة
تشقى ومن تشقى له غافل كأنك الراقص في الظلمة

و يشبه الشيخ من كثير من الوجوه غاندي الفيلسوف الهندي المعاصر وان لم يكن له ما لهذا من الشجاعة وذلك ان الشيخ لا يحب الاذى ولا العنف و يحاول احياء كل ما هو آسياوي من اللغات والتقاليد وتعليم الناس الصنائع وعدم الغفلة عما عند الامم الغربية من مقومات العلم . ولا عجب فالعقل واحد مهما اختلفت الأعصار وتباينت الأفكار العقل السليم في هذا الشرق القريب وفي ذاك الشرق الأوسط وما وراءه من الشرق الاقصى لا يختلف في مظاهره الحقيقية عما هو عليه في اوربا واميركا وافريقية .

نعم لم يكن الشيخ طاهر كالمهاتما غاندي في حملاته حتى ولا في تصريحاته . المبدآن متفقان الا قليلاً ولكن ابن الوثنية جسر على العمل بمبداه اكثر من ابن الاسلام . شعار غاندي « هندوساً كنا ام بارسيين نصارى . ام يهودا اياً كنا يجب اذا تاقت نفوسنا الى ان نعيش أمة واحدة ان تكون مصلحة الفرد مصلحة الجماعة ولا عبرة الا لمدلول مطالبه » . اما الشيخ الجزائري فكان يتوقع من القوم ان يقولوا هذا وهو لا يدعوهم اليه الا بالاشارة والمثال البعيد . والحكيم الهندي قال ما اعتقده غير مجمجم فتخلص من قيود كثيرة وأراد أمته علناً ان تنهج سبيله فكانت شهرته شهرة عالمية وانحصرت شهرة الشيخ في بعض أصقاع العرب . وكان بعضهم يقول ان الشيخ ضنين بالافادة حتى ادعى بعضهم « ان الشيخ طاهراً بئر علم ولكن لا ينتفع بها » والحقيقة انه يصعب على الشيخ مجاملة من يتشهى ولا مأرب له الا ان يقال عنه انه باحث وطالب فوائد فلا يرى ان يتعب نفسه في افهام فضولي يسأله في المسفة العليا او في مسائل تعلو عن محيط عقله على حين هو في حاجة الى ان يتعلم القراءة والكتابة . فكان في ضنانته هذه حكيماً ايضاً لا يظلم الحكمة فيلقي دررها بين ارجل من لا يعرف قدرها ولا يتأتى له ان يحسن الانتفاع بها . اما المستعدون للتلقي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والترقي فكان يجهد ان يختصر لهم طريق الوصول الى ما يريدون و يبعث كل حين عقليتهم و يفيض من واسع علمه على أذهانهم و كلما رآهم يحرصون جد الحرص على التقاط فوائده جاد عليهم بما يعلم الا اذا كان ثمة شيئاً لا يعرفه فانه يقول (لا أدري) غير مبال بنقد من يذهبون الى استقلال علمه وعدم إحاطته . فكان الآخذون عنه بالنظر لتحريه الصدق على ثقة من العلم الذي يسمعونه ويستملونه منه لان الشيخ الى التصريح بعدم معرفته أقرب منه الى ايهام الناس انه يعلم كل شيء شأن الموهبين والجامدين ولذلك لم يحسب عليه ان بدت مقاتله مرة لانه يقول بعد التحقيق ويكره التلفيق .

« للبحث صلة »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net